

شعر ابن الساعاتي

كلا ، ثم كلا ، لم يختم الشعر بالمتنبي ، ولا ختم بالمعري ولا بالشريف الرضي ولا بكشاجر ولا بابن الخياط الدمشقي ، لقد ظهر شعراء بعد هذه الطائفة المبرزة المبدعة ، ولئن كان لكل واحد من المذكورين ميدان يجول فيه ، وأفق يطير اليه ، فقد ظهر بعدهم شاعر انفرد بميدانه وبأفقه ، ظهر ابن الساعاتي الدمشقي في العصر السادس ، عصر صلاح الدين الأيوبي ، وأخلق بشاعر مثل ابن الساعاتي ، بنشأ في عصر مثل عصر صلاح الدين ان يأتي بقلائد تشبه قلائد المتنبي في سيف الدولة ، فلئن كان سيف الدولة حصناً حصيناً في وجه الروم ، لقد كان صلاح الدين مثل هذا الحصن في وجه الصليبيين ، ولكن سيف الدولة خلقه الله ، وخلق له المتنبي حتى يخلد غزواته وحروبه ، فهو وشاعره متلازمان ، أما صلاح الدين فلم يكن له نصيب من ابن الساعاتي في تخليد حروبه ، فليس لنا ان نفنن في شعر ابن الساعاتي عن قصائد نسمع فيها صهيل الخيل وقعقة اللجم وصرير العوالي ، كما سمعنا هذه الأتغام في شعر المتنبي ، فما هو من فرسان هذا الميدان ، ولكنه فارس ميدان لم يجل فيه غيره جولته ، ولا برز فيه غيره تبريزه ، فقد أرسله الله في عصر اختمرت قبله لغة الشعر كل الاختار ، فما على ابن الساعاتي الا ان يغرف من بحرها الخضم ، وما عليه الا ان يعرف هذه اللغة الناصجة في أشرف الغايات وأسمائها ، فلست بتعرض في مقالي الوجيز لفنون شعره وما اشتملت عليه هذه الفنون من مدح او غزل او رثاء ، وإنما أريد ان أشير في هذه الكلمات المختصرة الى ناحية من شعره ، ظهر مثلها في عصرنا هذا ، وكنا نظن انا المخترعون لها ، السابقون اليها ، واذا بابن الساعاتي يردنا الى الصواب ، لم ينبت شعرنا الوطني في العصر الذي نعيش فيه ، وإنما نبت هذا الشعر من عصور بعيدة ، لقد تغنى الشعراء بأوطانهم من أحقاب متطاولة ، ولكن ابن الساعاتي برع في هذا الباب ، لقد تغنى بوطنه أعذب غناء ، فلست ذا كراً من شعره الغزير الا هذه الناحية وحدها ، فقد تفنن فيها وكثرت

محاسنه في آفاقها ، وإذا أردت ان أختار له صفةً اختصه بها فلا أقول فيه الا شاعر
الوطنية ، فما عرف أحد من الشعراء فضل الوطن معرفته ، ولا نعم بفتنة طبيعته
نعمته ، ولا الف أفياءه ألفتة ، ولا اشتاق الى ارضه وممائه اشتياقه ، ولا ذكر
اخوانه في ظلاله ذكره لهؤلاء الاخوان ، فابن الساعاتي ذاب في محبة وطنه ، ذاب
في محبة دمشق ومنتزهات دمشق ، ذاب في محبة كثبانها وباناتها ، وآصالها واسرارها ،
ونسيمها وجوها ، وخمائلها وجناتها ، ودوحها وبلابلها ، وظلها ومائها ، وتربها وحصاها ،
ونرجيا وبهارها ، ووردها وبنفسجها ، وجنارها ورمانيها ، ذاب في هذه المحاسن كلها ،
وذابت هذه المحاسن في شعره ، فلست ترى في هذا الشعر الوطني الا آثار منازل
لهوى في دمشق ماتت فيها الكروب ، او صور طبيعةٍ تفتحت فيها الحياة ، حتى غدت
لمياحها قلوب تمسق بها وتحب ، ولدوحها معاطف تشبه معاطف الراقصات ، وحتى
غدا الدوح في هذا الشعر يهزه نغم القماري ، ويميل من مرح الشباب الى الدلال ،
لقد ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه ، فاذا غاب عنها بكى على شرح شبابه
وعلى أيام جهله فيها ، وشكى نلون عهود أهلها واشتاق اليهم ، ورجا ان يقرب الله
مزارهم فيو لا يسأل عنهم ، انه واف لمن غدر منهم ، حافظ لعهد من ضيع كل عهد ،
وقد يشتد به الشوق الى دمشق والى محاسن دمشق ، والى أهل دمشق فتمتني وهو
في مصر لو تمرغادية شامية تحمل الى نفسه عن أهل دمشق منى هذه النفس ، وتنقل
اليها أحاديث الحب ، لقد خلق الله له نفساً حرةً تصبو الى اخوانه وتبكي اذا غابت
عن هؤلاء الاخوان .

ما أرق شعور ابن الساعاتي ! ما الطف حسه ! ما اشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ! فقد
أعطاه الله عيناً لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة ، وأنفاً لا يفوته شيء من
شميم-روائحها الطيبة ، وأذناً فتنت بسماع الحانها وانغامها ، ولقد أعطاه الله شيئاً اجل
من هذا كله ، اعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة . وعلى احيائها في شعره ، فهو
شاعر الوطنية الدمشقية ، شاعر طبيعة دمشق وخمائل دمشق وبلابل دمشق ، وكل
جزء من اجزائها ، وكما رزقت دمشق الخلود في البلدان ، فقد رزق شاعرها الخلود

في الشعراء ، فانه صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ وحنها العذب ، هذه هي الناحية التي شغلني في شعر ابن الساعاتي عن كل نواحيه الشعرية ، ولقد يذهب الشاعر في فنون شتى ، فيضعف في اكثرها ويقوى في واحد منها ، فيجئته الخلود من هذا الفن الذي قوي فيه ، وابن الساعاتي خالد من ناحية شعره الوطني ، وهي كافية ، انه ايسر في حاجة الى غيرها ، فهو خالد من هذه الناحية التي يقول فيها :

وجيرة السفح من لبنان جادكم
تلوّنت مثل أيامي عيودكم
معي خلعت الصبا والشمل مجتمع
سموا الظلام على أقماره شعراً
واهاً لشرخ شباب كنت مقتبطاً
شكوت ان هنرني ذو منظر بهيج
كم موقف مثل حد السيف دونكم
وزرورة لي وعين النجم ناعسة
جهت فيها فأدر كت المنى كتباً
وان نار الهوى بالدمع ماخذت
آهاً لقلب أسير في رحالكم
نظير دمعي اذا ما نهيل أو هطلا
واستبدلوني ولم اطلب بهم بدلا
خلع الرداء على ايامهم حلا
ويانع الورد في أغصانه نجلا
به وعمر وصال كان مقبلاً
او لدّ صفو حياة بعدكم وجلا
مضيت فيه وحد السيف قد نكلا
من السرى وخضاب الليل ما نضلا
وانما يدرك اللذات من جهلا
كما زعمتم وجرح الشوق ما اندملا
نصحنه فيكم جهدي فما قبلا !

* * *

وهو خالد من هذه الناحية الثانية التي يقول فيها :

يا أخلاي وان شطاً بنا
حبذا غادية شامية
ما حداها الرعد الأ قصرت
وجد القطر سهاماً فرمى
فأصابت مقلة دامية
تقلت عنكم أحاديث الصبا
حدث الأ أيام عنكم وثناها
حملت عنكم الى النفس منهاها
شقة الفسطاس ممدود خطاها
ومن البرق سيوفاً فانتضاها
وفؤاداً طال فيكم ما اتقاها
فأقر الله عيني من وعاما

بلغت عنكم شفاهاً حبذا حبذا ما بلغت عنكم شفاها
 لا تلم عيني على طول البكا كيف لا تدمع والبين قذاها
 وقلب القلب ما زال به فتأحباً انسانها حتى أمأها
 طال ايلي طول وجدتي بكم فرماني ليلة مات صحاها
 لو يسير الطيف في اثنائه - وهو الطيف - او النجم لتأها
 ما على ماطل ديني لو قضى وعلى قاتل نفسي لو ودأها
 فقرها الا اليكم مشتهى وجميل عنكم الا غناها
 وجدت من نأيكم ما وجدت فالى عالم بئي مشتكاها
 قسماً ما بقيت عن سلوة انا يحمل عنها من بلاها
 أمر الدهر عليها ونهى بأمر الحرص بما ينهى نهاها
 دعوة الشوق لكم مسموعة فاذا ما هتفت كنت صداها

شعبي جبري

